مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ٢٠٠٢/١٢/١

بهـــدوء

بقلم: إبراهيم نافع

السادات مظلوما...! ٢

المحارب

ربما لم يظلم الرئيس السادات فى حياته ومماته قدر ما ظلم بشأن حرب أكتوبر المجيدة، ولم يكن ذلك فى الحقيقة ظلما للرجل بقدر ما كان ظلما لمصر كلها، وتاريخها وواحد من أعظم إنجازاتها قاطبة فى التاريخ المعاصر. والأرجح أن ذلك يرجع فى الأساس إلى أن من انتقدوه وانتقصوا من قدره ، كانوا هم أنفسهم الذين أصروا فى بداية حكمه على أنه لن يحارب أبدا، وكانت مفاجأتهم بالحرب مذهلة لهم على القدر نفسه الذى أذهلت به العالم كله، فأما المتشككون فى الداخل فلقد اعتقدوا ظلما أن السادات ليس من طراز القادة التاريخيين القادرين على خوض المعارك المصيرية.. وأنه برحيل عبد الناصر عن الحياة، وانفراد السادات بالحكم بعد قيامه بتصفية من كانوا يعتبرون أنفسهم الأمناء الوحيدين على تراثه، فقد خلت القيادة المصرية من الزعيم القادر على خوض

غمار الحروب واسترداد الأرض المحتلة. ودللوا على ظنهم فيه باتهامه بأنه رجل يفضل المظهرية على الجدية المطلوبة للقتال، ويعنى بمقابلة الصحفيين الأجانب أكثر من عنايته بمتابعة عملية إعادة بناء الجيش المصرى التى بدأها عبد الناصر بالفعل عقب الهزيمة الطاحنة فى حرب يونيو ١٩٦٧، وبأنه يفضل رغد العيش على عناء الحرب، ويغازل الغرب أملا فى استرداد الأرض بغير حرب بدلا من القتال لاستردادها، ونسوا جميعا أن السادات كان هو نفسه الوطنى المنخرط فى العمل السرى ضد الاحتلال الانجليزى منذ فجر شبابه كضابط بالجيش المصرى، وأنه كان الوجه الوحيد من بين ضباط ثورة يوليو الذى عرفه الرأى العام قبل قيام الثورة، وأمضى فى السجون والمعتقلات زهرة شبابه وفصل من الجيش، وذاق مرارة الكفاح من أجل لقمة العيش، وهو الرجل رب الأسرة.. فداء للقضية الوطنية.

وأما فى المنطقة العربية فلقد كانت الثقة فى قدرته على الحرب لاتختلف كثيرا عن ثقة المتشككين فى الداخل فى جدية عزمه على الحرب والقتال. ويكفى للتدليل على ذلك ما رواه الزميل الراحل الأستاذ موسى صبرى فى كتابه «السادات.. الحقيقة والأسطورة» من أنه زار تونس فى أغسطس ١٩٧٣ والتقى الرئيس التونسى السابق الحبيب بورقيبة فبادره بالقول بأنه متشائم من إمكان دخول مصر الحرب لتحرير أرضها، واعتبر تأكيد موسى صبرى له أن مصر تستعد للقتال مجرد نكتة، وقال له: لقد نصحت الرئيس السادات عندما كان يزورنا فى تونس بأن يتخلى عن شرم الشيخ لإسرائيل، ولا داعى لاستمرار الأزمة الطاحنة إذا كانت قطعة صغيرة من الأرض ترضى إسرائيل!

وأكد رأيه بالقول: ألا يعلم السادات أن إسرائيل قد أعدت نفسها عسكريا واقتصاديا بحيث تستطيع التمرد على أمريكا إذا باشرت ضغطا عليها لمصلحة العرب، وإذا استخدموا ضدها سلاح البترول، وهو الأمر غير الوارد على الإطلاق؟

بل إن نصيحة الاتحاد السوفيتى نفسه للسادات، وقد كان المؤيد الأول وقتها للحق العربى، هى عدم المغامرة بالحرب لكيلا

ينهزم السلاح السوفيتى مرة أخرى أمام السلاح الأمريكى، ولم يكن الموقف من السادات وعزمه القتال يختلف كثيرا فى ليبيا، أو المغرب، أو معظم دول الجزيرة العربية، وحتى حين أدلى السادات بحديث إلى أرنو بورشجريف كبير محررى النيوزويك الأمريكية وقال فيه:

إن الحرب على الأبواب، انتظروا وسترون أن هذا سيحدث أقرب مما تتصورون حتى حين قال ذلك لم يصدقه أحد، وتناولوا تصريحاته وتأكيداته باستخفاف كبير، وأضافوا هذه التصريحات إلى تصريحاته السابقة عن عام الحسم الذى لم يتحقق فيه الحسم، عام ١٩٧١، وتصريحاته الأخرى عن قرب اشتعال نيران الحرب.

ولا يحتاج الأمر من الجهد إلا التقليب فى صفحات تلك المرحلة من تاريخ مصر فى السنوات الثلاث السابقة على الحرب، ومنذ توقفت المدافع فى حرب الاستنزاف، ولن نجد فى هذه الصفحات سوى اليأس المطبق. بل والذكات المليئة بالحزن والإحباط عن الضباب وعام الضباب الذى كان يسود جو المنطقة فى هذه الفترة، وكان مانعا للقيام بمعارك أو بحروب. فلم يكن هناك من تحركات سوى اجتماعات الدولتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم اجتماعات الدول الأربع الكبرى بانضمام فرنسا وبريطانيا لهما، وكانت هناك أيضا الاتصالات المكوكية التى يقوم بها السفير السويدى جونار يارنج فى المنطقة بلا مغزى أو نتيجة. وكان اليأس حادا إلى الدرجة التى أخرجت مظاهرات الطلبة فى عام ١٩٧٢ تطالب بالدخول فى المعركة مهما تكن عواقبها، وباتت هذه المشاعر والعواطف بضاعة صالحة للاستخدام من جانب كل من أراد انتقاد السادات لأسباب ومصالح لا علاقة لها بالمصالح الوطنية انتصارا لأيديولوجيات ومذاهب، أو تفضيلا لفترات بعينها فى التاريخ المصرى.

وعندما فاجأ السادات الجميع بشن الحرب التى خالفت توقعات كل من أكدوا أنه لن يجرؤ على الحرب أبدا، كانوا هم أول من خرجوا على الناس فورا بالقول إن الحرب حرب «تحريك» وليست حرب «تحرير». وكان ذلك نوعا من البهلوانيات

السياسية التى حاول بها البعض من السياسيين العرب والمصريين. صرف الأنظار عن مواقفهم السابقة، والنجاة بأنفسهم مما توقعوا حدوثه من انهيار تام يكرر هزيمة حرب يونيو ١٩٦٧ الساحقة. وعندما لم يحدث ذلك وحررت مصر جزءا من أرضها، واستردت كرامتها وكرامة جيشها، إذا بهؤلاء أنفسهم يقولون إن السادات قد أضاع وأهدر" انتصار أكتوبر " الذى أنكروه من قبل عندما بدأ رحلة استثمار النصر العسكرى الذى أحرزه من خلال عملية دبلوماسية معقدة وحساسة قادت فى النهاية إلى تحرير كامل التراب الوطنى.

وهكذا كان الظلم يلاحق السادات فى كل الأحوال، عندما عض على النواجذ انتظارا للحظة المناسبة للمعركة، والتى استمر انتظارها ثلاث سنوات تقريبا كانت جبهة القتال فيها صامتة.. وحتى عندما هدرت المدافع واندفعت الجيوش وتم تدمير أعتى الخطوط الدفاعية واجتياز أعتى الموانع المائية وارتفعت الرايات المصرية فوق السواتر والقلاع الحصينة على الضفة الشرقية للقناة.

وزاد الظلم أضعافا مضاعفة بعد أن تحول النصر إلى نتائج سياسية على الأرض، تتمثل فى استعادة الأراضى المحتلة واحدة بعد الأخرى. وما بين هذه الموجات الظالمة من التقييم السلبى للسادات، كانت هناك اتهامات محددة، أولها أن الجيش الذى حارب وعبر خط بارليف لم يكن جيش السادات وإنما كان جيش عبد الناصر الذى تم إعداده وتجهيزه فى أثناء حرب الاستنزاف. وثانيها أن السادات ارتكب حماقة من أكبر

الحماقات _ إن لم تكن فى رأى البعض خيانة من أبشع الخيانات - عندما أفضى لكيسنجر بنيته خوض حرب محدودة. وثالثها أنه أضاع الفرصة التى أشار بها مستشارون عسكريون للرئيس عندما لم يقم بتصعيد الهجوم فى الأيام الأولى من حرب أكتوبر فورا للوصول إلى ممرات سيناء الاستراتيجية بعد نجاح عملية العبور، تاركا الجيش السورى وحده فى الميدان، بينما كان الجيش المصرى فى حالة الوقفة التعبوية. ورابعها عندما قبل وقف إطلاق النار عند الحدود التى وصلت إليها القوات، مع البدء فورا فى عملية التفاوض مع هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية، بينما كانت دماء الشهداء الذين قتلتهم الأسلحة الأمريكية مازالت ساخنة وحارة.

ولقد ظلت هذه الاتهامات تتردد طوال ربع القرن الماضى، و تم الرد عليها مرارا وتكرارا من قبل مؤرخين ومتخصصين عسكريين، ومع ذلك ظل الولع باستخدامها قائما فى الصحف والفضائيات العربية، ومن جانب كل من فاتهم الدور، أو يحاولون لعب دور فى الوقت الضائع. وما لم يفهمه هؤلاء جميعا هو أن السادات ككل السياسيين ورجال الدولة العظام لم يكن يخوض الحرب من أجل الحرب، أو الانتقام، وإنما من أجل تحقيق أهداف سياسية واستراتيجية فى مقدمتها " إزالة آثار العدوان " _ وهو نفسه الهدف الاستراتيجى الذى حدده الرئيس عبد الناصر عقب هزيمة يونيو الطاحنة - وتحرير الأراضى المصرية من خلال خطوات عسكرية وسياسية ودبلوماسية متتابعة، كما جاء فى أمر القتال الذى أصدره للقوات المسلحة. وكان السادات ككل السياسيين ورجال الدولة العظام معنيا ليس فقط بما يجرى فى ميادين القتال، وإنما بما سيحدث أيضا بعدها، ومعنيا للغاية بحالة مصر ومنشآتها الحيوية بعد أن تصمت المدافع ويذهب الجميع إلى مائدة المفاوضات.

وضمن هذا الإطار جاءت تحركات السادات السياسية والدبلوماسية خلال الحرب، ومنها نفهم سبب الرسالة التى أرسلها إلى كيسنجر عصر يوم السادس من أكتوبر من خلال قنوات المخابرات وعلى لسان السيد حافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى، والتى جاءت فيها العبارة التى باتت شهيرة بعد ذلك

، وهى إننا لا ننوى تعميق اشتباكنا (مع إسرائيل) أو توسيع المواجهة

هذه الجملة هى الوحيدة التى يجرى تكرارها واستخدامها بكثافة كدلالة على غفلة السادات أو خيانته لأنه باح بسر استراتيجيته فى " الحرب المحدودة " وأعطى للأمريكيين، وبالتالى إسرائيل، المدى العسكرى الذى يستطيع الوصول إليه. ومن المدهش أن كل من نظر إلى هذه العبارة واستخدمها لانتقاد السادات لم يشر من قريب أو بعيد لبقية الرسالة، ولا للتوقيت الذى جاءت فيه، ولا للاحتمالات الأخرى لهذه الرسالة التى ولدت ضرورتها استراتيجية الحرب المحدودة التى كان بعض منتقديه من أول من أسهموا فى صنعها، ولكنهم عند التطبيق أغفلوا متطلباتها.

فالرسالة جاءت فى اللحظة التى كانت الاشتباكات المصرية - الإسرائيلية تجرى فيها على نطاق واسع بامتداد الجبهة كلها، وعلى مسافة طولها ١٧٠ كيلومترا، وبينما كانت تجرى عمليات التحضير للعبور الليلى للدبابات والقوات الرئيسية. ومعنى ذلك أن الرسالة لم تكن تعنى تعميق الاشتباكات التى كانت عميقة بالفعل، أو توسيع الاشتباكات التى كانت متسعة بالفعل، وإنما كانت تعنى عدم التوسيع الذى يشمل العمق فى مصر وإسرائيل، وبالتالى وضع قواعد للحرب منذ بدايتها تكون الولايات المتحدة شاهدة عليها.

كان السادات يعلم، كما كان عبد الناصر من قبله يعرف أن قدرات إسرائيل الجوية كبيرة على الوصول إلى الأعماق المصرية الممتلئة بالمنشآت والجسور والقناطر والسدود الحيوية، كما كان يعلم تماما بالقدرات النووية الإسرائيلية التى ثبت وضعها موضع الاستعداد والطوارىء لأول مرة فى الأيام التالية

للحرب. وكان معنى توسيع الاشتباكات وتعميق المواجهة لكى تشمل الجبهات الداخلية أن تخرج مصر من الحرب - مهما تكن منتصرة - وهى مدمرة داخليا تماما، بحيث تكون بالغة الضعف وهى أمام المفاوضات. ولم يكن ذلك هو ما يريده السادات على الإطلاق، ولذلك فإنه أراد من رسالته وضع قواعد للحرب، وفتح باب للحوار مع الولايات المتحدة التى لم يختلف أحد على دورها الضرورى والحاسم منذ موافقة الرئيس عبد الناصر على مبادرة روجرز، وضمن هذا الحوار جاء الجزء الرئيسى من الرسالة، والذى لا يذكره أحد بالمناسبة، وهو شروط مصر من أجل السلام التى تركزت فى ضرورة الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية.

كان ذلك هو على الأقل ما فهمه كيسنجر نفسه من الرسالة، وكان كذلك هو الفارق بين الإدارة الاستراتيجية للصراع، والتى لم يستوعبها الكثيرون من منتقدى السادات والتى مارسها السادات فى الحرب. فلقد كان ما تعود عليه العالم العربى فى حروبه السابقة أن يعرف متى تبدأ الحرب، ولكنه لا يعرف أبدا متى تنتهى وعند أى ظروف، كما كان قد اعتاد أن المعارك العسكرية جولة والمعارك السياسية جولة أخرى منفصلة ومقطوعة الصلة بها. وعلى العكس من ذلك كان السادات يعرف تماما - كما قال المفكر الاستراتيجى كلاوزفيتز منذ زمن طويل - إن الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى، وإنه بينما كان يمارس السياسة كان يعد للحرب، وعندما كان يمارس الحرب كان يعد للسياسة. وكانت هذه هى اللحظة التى غير فيها كيسنجر أراءه فى السادات الذى كان يظنه رجلا مغرما بالفرقعات bom-bastic، فإذا به يجده رجل دولة من الطراز الأول. وفى كتابه " سنوات القلاقل " وصف كيسنجر السادات بأنه كان رجلا عظيما لديه حكمة وشجاعة رجل الدولة وأحيانا رؤى نبى، وقد كتب ذلك بعد وفاة السادات ورحيله هو نفسه عن منصبه فى الإدارة الأمريكية.

ومع ذلك تم تجاهل ذلك فى كثير من الكتابات المصرية والعربية. وبالرغم من أن هذه الرسالة السرية من السادات إلى كيسنجر فى بداية القتال كانت واحدة من الأسباب التى جعلت كيسنجر يتردد فى تعويض إسرائيل عن خسائرها، ودفعته إلى إن يصر على أن يتم التعويض وفق مقدرة شركة طيران العال على النقل خلال الثلاثة أيام الأولى للحرب، وهى الفترة التى كان السادات يحتاج إليها لكى تتم عملية العبور.

وعن أهم نتائج حرب أكتوبر، قال الكاتب الفرنسى تييرى ديجردان فى كتابه «السادات.. فرعون مصر» : «إن الجانب السياسى هو أكثر الأشياء إثارة فى نتائج حرب أكتوبر. وقد قلناها مرارا وتكرارا، إن أسطورة إسرائيل التى لاتهزم قد دمرت فى مساء السادس من أكتوبر. ففى خلال أيام لم تعد إسرائيل تعرف ماذا تفعل، ولم ينقذها إلا الجسر الجوى الأمريكى والأخطاء التى وقع فيها بعض القادة العسكريين المصريين. كان واضحا بلا شك أن المخابرات الإسرائيلية لم تتوقع شيئا مما حدث . وأن كل خطوط الدفاع (بارليف وغيره) لم تمنع الاختراق العربى، وأن «خط الدفاع» الإسرائيلى لم يصمد ».

ويعتبر الجانب الدبلوماسى هو الإنجاز الحقيقى «لحرب السادات». ففى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ أى فى ذروة الحرب، وبينما بدأ الجسر الجوى الأمريكى فى نقل المعدات الحربية لإسرائيل، وجه السادات «رسالة علنية للرئيس نيكسون»، عرض فيها برنامج سلام من خمس نقاط .

وفى الخامس والعشرين من أكتوبر، وبينما يضع نيكسون كل قواته فى حالة «استعداد تام» للرد على تهديدات الروس الذين أرادوا «الدفاع» عن العرب . أعلن كيسنجر بالنص فى واشنطن : «إن الظروف التى أدت إلى هذه الحرب كانت بوضوح غير محتملة بالنسبة للعرب، ولذلك فإنه من الضرورى فى المباحثات القادمة، أن تقدم إسرائيل تنازلات جوهرية» .

لقد كان السادات يستعد للسياسة بعد الحرب بقدر ما كان يستعد للحرب فى وقت السياسة الذى لم يكف خلاله عن طرح

المبادرات الدبلوماسية لفتح قناة السويس، أو الاتصال بالولايات المتحدة، أو عقد معاهدة للصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى، وفى كل هذه المراحل كان يزيد من قدرات القوات المسلحة استعدادا لليوم الموعود للتحرير.

صحيح أن الرئيس جمال عبد الناصر كان قد أعاد بناء القوات المسلحة، كما كانت هناك الخطة ٢٠٠ الدفاعية التى كانت تجعل عبور القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة مكلفا إن لم يكن مستحيلا، كما كانت هناك الخبرات الهائلة التى حصلت عليها مصر خلال حرب الاستنزاف، ومشروعات لعمليات هجومية تحت مسمى خطط جرانيت المتتابعة. ولكن هذه الخطط كانت مجرد نيات على الورق والخرائط ، وكان على السادات أن يحولها إلى إمكانيات وقدرات وفعاليات تناسب الممكن وتصلح للتطبيق، واستغل فى ذلك علاقاته الجديدة مع العرب ومع أوروبا، بل وعلاقاته مع الأتحاد السوفيتى من خلال معاهدة الصداقة، ومن خلال طرد الخبراء السوفيت، لكى يحصل على الأسلحة التى يريدها. وبالتالى فإن القول إن السادات كان يحارب بالجيش الذى بناه عبد الناصر فيه قدر من الصحة ولكنه ليس كل الحقيقة، فقد كان الجيش الذى خاض به السادات الحرب متمتعا بقدرات هجومية وحاصلا على أسلحة وأدوات للردع لم تكن متوافرة خلال الفترة السابقة، كما كانت تديره - وهو الأهم - عقليات عسكرية محترفة، فضلا عن عقلية استراتيجية من الطراز الأول للقيادة السياسية.

ولا جدال فى أن منتقدى الرئيس السادات ظلموه كثيرا عندما وضعوا على عاتقه مسئولية الوقفة التعبوية التى بدأت بعد يوم التاسع من أكتوبر، متهمين إياه بأنه ترك الجبهة السورية وحدها فى الميدان على مدى الأيام الثلاثة التالية. فالحقيقة أن ذلك قد حدث أولا لأسباب عسكرية بحت، فالجبهة المصرية كانت بالغة الاتساع وتم فيها استخدام قوات هائلة وبعد معارك العبور الكبرى، ثم معارك الدبابات العظمى التى انتصرت فيها جميعا، كانت فى حاجة لتنظيم صفوفها والتمهيد للمرحلة الهجومية التالية. صحيح أن وجهة نظر اللواء - وقتها - عبد الغنى الجمسى كانت ترى ضرورة التطوير الفورى للهجوم، إلا أن بقية أعضاء القيادة

العامة بمن فيهم القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل والفريق سعد الشاذلى رئيس الأركان كانت تختلف مع هذا الرأى ، وترى ضرورة الوقفة التعبوية التى لم تمنع من استمرار الهجمات على إسرائيل مع استمرار الدفاع النشيط ضد هجماتها فى اشتباكات لم تتوقف للحظة واحدة. ولم يكن لذلك تأثير على ما يجرى فى الجبهة السورية، لأنها حتى فى ظل الهجوم المصرى الكامل فى الأيام الثلاث الأولى من الحرب كانت قد فقدت قوة اندفاعها فى مساء اليوم الثانى، وعادت إلى ما وراء خطوط ما قبل بدء العمليات فى مساء الثامن من أكتوبر، وارتكزت على الخطوط الدفاعية المنيعة لدمشق والتى لم يكن بمقدور إسرائيل اختراقها وهى ترى القوات المصرية الرئيسية تتجمع شرق قناة السويس.

المسألة إذن كانت عسكرية من البداية إلى النهاية، وجرى فيها ما جرى من خلاف فى الرأى بين القادة العسكريين المحترفين، الذين كان منهم البعض من طراز القائد العسكرى البريطانى مونتجمرى الحذر، والبعض من طراز القائد العسكرى الأمريكى باتون الجرئ. وقد وقف السادات مع الجانب الأول ليس فقط لأنه كان يضم القائد العام ورئيس الأركان، وإنما لأنه أيضا كان يحتاج إلى فسحة من الوقت لنقل قوات الدفاع الجوى المتحركة إلى الشرق، كما كان يحتاج إلى الوقت لإنضاج الظروف السياسية والدبلوماسية لما بعد الحرب. وكان ذلك هو منطقه الذى استند إليه عند قبول وقف إطلاق النار، فقد كان السادات يدرك أنه استعمل كل مهاراته السياسية حتى يؤجل الوقوف السافر للولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل فى الحرب. وكسب بالفعل ثلاثة أيام كانت فيها أمريكا تنقل

أسلحتها على طائرات شركة العال المدنية، كما كسب ثلاثة أيام أخرى كانت الولايات المتحدة تعوض إسرائيل خلالها عما تفقده من خلال شركات الطيران المدنية الأمريكية التى كان يتم طلاؤها بعلامات وألوان شركة العال. وبعد ذلك جاء القرار الأمريكى بإقامة الجسر الجوى والبحرى الذى وصل بالإمداد الأمريكى إلى ساحة القتال مباشرة. وهنا كان قرار السادات أنه لن يحارب أمريكا، وإنما قد جاء لكى يحصد النتائج السياسية لمعركة عسكرية مظفرة، وكان فى ذلك منطقيا تماما مع أهداف الحرب المجيدة التى خاضها، ذلك أنه لم يحارب من أجل الحرب، أومن أجل الانتقام، وإنما من أجل تحرير الأرض. ولقد تهيأت الظروف لاستثمار الحرب فى تحقيق الهدف الأسمى لها وهو استعادة الأرض وبدء التفاوض حول استرداد بقية التراب الوطنى.. فماذا كان يدعوه إذن لمواصلة قتال لن يغير حقائق الجغرافيا، بأكثر مما تغيرت بالعبور العظيم؟.